حكمة الهنود وطبهم

يرى جمهور الباحثين في تواريخ الامم ان الهنود المنتشرين الآن في اكثر بلاد الهند دخلوها قبل التاريخ المسيحي بنحو الفي سنة وتغلبوا على اهاليها الاصليين . وكان المظنون ان سكان اوربا الحاليين اعمام لهولاء الهنود وانهم كلهم من صنف واحد من الناس هو الصنف الآري وقد جرى الكتّاب على هذا المذهب الى عهد قريب جدًّا اما الآن فقد اختلفوا وارتأى جمهور من اعلمهم ان اصل اهالي اوربا الحاليين من شمالي اوربا لا من جهات بلاد الهند ولهم في ذلك مباحث ومشاحنات طويلة سنأتي على خلاصتها في فرصة أُخرى . والذي يهمنا ذكرهُ الآن ان هولاء الهنود كانوا في سالف عصرهم قبائل رُحّلاً كعرب البادية ولكنهم كانوا يحرثون الارض ويربون المواشي ويحوكون الانسجة ويخيطون الثياب ويطبخون الطعام

وقد انقسموا من قديم عهدهم الى اربع طبقات الكهنة والجنود والتجار والصنّاع وكل طبقة منها مستقلة عن الطبقات الاخرى لا تزاوجها ولا تواكلها ولا تشاربها ولم يكن يجوز لاحد من الكهنة ان يعمل اعمال الطبقات الاخرى ودام ذلك الى الفتح الاسلامي ثمّ نال الهنود شيء من الضيق فاباحوا لاهل الطبقة الاولى تعاطي اعمال الطبقات الأُخرى اذا مسّت الحاجة

اما سكّان الهند الاصليون فلم يتركوا وراءهم تاريخًا مكتوبًا وكل ما بقي من آثارهم الى يومنا هذا دارات من الحجارة فوق مدافنهم . ويظهر من وصفهم في اشعار الهنود الذين جاءوا بعدهم انهم كانوا سمر الالوان بل سودها وهيئتهم مغوليّة وانهم انوا بلاد الهند اصلاً من بلاد كثيرة الجبال والآكام

واقدم كتب الهنود كتاب الفيدا او الوحي وقد وُضع قبل الميلاد بعشرة قرون الى اربعة عشر قرنًا ويقال انهُ أُوحي بهِ حينئذٍ الى الحكماء الذين ينسب اليهم ولذلك يطلق عليهِ اسم صروتي اي المسموع لانهم سمعوهُ سمعًا . وهو اربعة كتب ثلاثة منها قديمة والرابع حديث بالنسبة اليها ويقال انها حُلِبت حلبًا من النار والهواء والشمس . والتعاليم التي في هذه الكتب والسنن المبنيّة عليها اوحى بها الهم الى الحكيم مانو ثم جمعها حكيم آخر اسمهُ فياسا اي الجامع . وهذه السنن سامية في ذاتها تدعو الى عمل البر والتقوى وتحث

الناس على الاعتناء بالزراعة والصناعة والتجارة والرفق بالمتعبين والذين لا ناصر لهم. ومن هذه السنن ما لم ينتبه اهالي اوربا الى وجوب العمل به الاَّ في هذه السنين الاخيرة. وغايتها كلها راحة الناس ورفاهتهم في الحياة الدنيا لانها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتوجب على الناس ان يعيشوا بالسلم والاتحاد

ونشأ عند الهنود مذاهب فلسفيَّة كثيرة قبل التاريخ المسيحي بست مئة او سبع مئة سنة اشهرها مذهبان مذهب قدنتا ومذهب نيايا واسم زعيم المذهب الاول كابيلا واقوالهُ تشبه اقوال الفيلسوف فيثاغورس والفيلسوف زينو. واسم زعيم المذهب الثاني غوتاما وهو مذهب عالي منطقي ويقول الهنود ان واحدًا من كهنتهم الاقدمين اطلع كالسقنيس اليوناني عليهِ وهذا نقلهُ لارسطو فاتبعهُ

والمذهبان صريحان في ان اعمال الانسان يجب ان تكون خاضعة لعقلهِ وان العقل يميز الخير من الشر والهدى من الضلال. وقال فلاسفة نيايا بوجوب اتباع الطريقة الوسطى في كل الامور كما بين الجبن والجرأة والبخل والتبذير. وقال فلاسفة قدنتا ان تعاطي الاعمال المختلفة لا يمنع الانسان من القيام بالفرائض الدينيَّة. وكلامهم في خلق الانسان شعري بديع قالوا ان الله خلق الحيوانات ووهبها المشاعر الخمس اللمس والبصر والشم والذوق والسمع ووهب الانسان قوَّة النطق الباطن ليميزهُ عليها كلها وقد ميزهُ عليها بلطف اعضائهِ التي يتولَّد منها العقل والذِّكر والنطق

ويزعم فريق منهم ان كل حيوان من ارقى الانواع الى ادناها قد وُجد منذ الازل وسيبقى الى الابد ولا يطرأ عليهِ الاَّ تغير الصورة فيتحوَّل الادنى الى الاعلى او الاعلى الى الادنى وذلك شبيه بمذهب النشوء او الارتقاء والانحطاط. وقد شرحوا الحواس شرحًا قريبًا من الصحة فقالوا ان النظر يحدث من ان الاجسام تعكس النور الذي يقع عليها فيصل الى العين منعكسًا عن كل دقيقة من سطح الجسم ويرسم عليها صورتهُ ولكن الانسان لا يرى هذه الصورة ما لم يلتفت العقل اليها. والسمع هو الشعور بالصوت الذي ينتقل بواسطة الاثير لا بواسطة الهواء. والذوق شعور اللسان والحلق بشكل دقائق الجسم الذي يذاق. والشم يحدث من وصول رائحة الجسم المشموم الى الانف. واللمس يحدث من اتصال الاجسام الكثيفة بالجلد. وهذه الحاسة منتشرة في كل الجسم ما عدا العظام والشعر والاظافر. وقالوا ان في الجسم عصبًا كبيرًا تتوزَّع منهُ اعصاب دقيقة في الجسد كلهِ وهذا العصب الكبير مؤلف من طبقتين واحدة تحسُّ وواحدة لا تحسُّ. وان الانسان كالشجرة بلا مبالغة شعرهُ كاوراقها وجلدهُ

كعظامها ويجري الدم في جلده كما يجري العصار في لحاها . وعضلاته كالياقها وعظامه كالعقد التي في خشبها . واذا قطعت الشجرة نبتت خراعيبها ثانية وكذلك الانسان اذا قطعته يد الموت احياهُ الله القدير ثانية

وقد عُلم من الآثار المصريّة ان المصريين القدماء كانوا يعرفون بلاد الهند قبل ايام موسى الكليم وكان كهنتهم يذهبون اليها ويتفقهون بعلوم اهلها . ويظهر من التاريخ ان الجراحين الذين رافقوا الاسكندر المكدوني في غزواته ودخلوا معهُ بلاد الهند عجبوا من مهارة الهنود في فن الطب والجراحة . وكان عندهم في كل قرية من قراهم طبيب وجرّاح وصرّاف وخزّاف ونجّار وحلّاق وسكاف ونسّاب ومنجم . ومن واجبات الطبيب ان يرشد الناس الى طرق العلاج والى طرق اتقاء الامراض

وكانوا يعلّمون كل انسان طرق حفظ الصحة الموافقة للفصول الاربعة والاقليم الذي هو فيهِ من حيث كونهُ رطبًا او جافًا وباردًا او حارًّا . ومواضيع تعليمهم القيام باكرًا وتنظيف الفم ودهن البدن وترويضهُ وتليين اعضائهِ ودلكها وغسلهُ واللبس والاكل والنوم . وهاك مثالاً لذلك " الرياضة تزيد القوّة وتمنع الامراض وتشفيها بتعديل الاخلاط وتمنع الفترة والسمن وتقوّي البدن وتثبّته وتزيل الكآبة وتزيد النار الداخليّة وتجعل الانسان خفيفًا نشيطًا مستعدًا للعمل " . وكانوا يحسبون المشي من افضل طرق الرياضة والدهن بالزيت من افضل الوسائط لتقوية البدن ووقايتهِ من حر الشمس ومنع خروج العرق الغزير منهُ الذي يضعفهُ . ولم يزالوا حتّى الآن يدهنون المريض بالزيت ويداوون بهِ الجروح

وهم يحلقون شعر رؤوسهم لكي لا تتولّد الهوام فيها ويشتون بركًا بجانب معابدهم ليغتسلوا بها والاغتسال فريضة واجبة على الانسان اذا مسّ ميتةً او ابرص وعلى المرأة بعد ولادتها . وكذلك غسل الآنية النحاسية والخزفيّة . واذا كانت الآنية الخزفيّة قليلة الثمن فالغالب انهم يكسرونها ويتلفونها . وجزاء الطبيب المال من الاغنياء والصداقة والشهرة والشكر من الفقراء

ويطلق فن التشريح والفسيولوجيا عندهم على معرفة طبائع العناصر ونمو الجسد وخواص اعضائهِ الطبيعيّة والحيويّة والروحيّة . وفن الصيدلة على معرفة خواص العقاقير والحشائش الطبيّة . وكانت العقاقير الطبيّة ترد من بلاد الهند الى بلاد الشام قبل المسيح بالف سنة . وقد ابان الجنرال غوردون ان بين الشرائع الهنديّة والشرائع الموسويّة مشابهة تامّة في امور كثيرة ولاسيما في ما يتعلّق بمعاملة الابرص

هذا والباحثون في كتب الهنود وتواريخهم متفقون على ان الهنود وطّدوا دعائم العلم والحكمة

قبل ان بزغت اشعتها في بابل واشور وقبل ان انتشر لواؤها في وادي النيل او بلغت اخبارها اليونان والرومان فكأنّ سير المعارف كان من المشرق الى المغرب تابعًا لمسير الشمس . ومن ادراننا انهُ لا يأتي وقت تعود فيهِ المياه الى مجاريها فتنتقل المعارف الى اميركا ومنها الى اليابان والصين والهند محتدها الاول فيقول الشرق هذه بضاعتنا ردّت الينا

الطعام وطبخهُ

اذا اكتشف الكيماويون مادّةً تقوم مقام النوّة او النيل او الكينا اطنبت الجرائد بذكر هذا الاكتشاف وبالغ الخطباء في مدحهِ وحسب كلٌّ احد انهُ سينتفع بهِ نفعًا عظيمًا . وحقيقة الامر ان النفع الذي يناله كل احد من هذه المكتشفات الثلاثة لا يساوي بضعة غروش او بضعة عشر غرشًا في السنة لان المنسوجات التي تصبغ بالنوّة والنيل والادوية التي تدخل الكينا في تركيبها استعمالها محدود ومهما رخصت باكتشاف النوّة والنيل والكينا الصناعيّة لا يزيد رخصها عن شيء قليل من ثمنها . وقصارى الامر ان الثوب المصبوغ بالنيل الصناعي او بالنوّة الصناعيّة يصير ارخص من المصبوغ بالنيل الطبيعي او بالنوّة الطبيعيّة بخمسة غروش او ستة والدواء الذي فيهِ درهم من الكينا الصناعيّة ارخص من الذي فيهِ درهم من الكينا الطبيعيّة ببضعة غروش لا غير . واذا اكتشف علماء الطبيعة واسطة تزيد فعل البخار او ترخّص ثمن الحديد او تسهّل طحن الدقيق لهج كل احد بذكرها وعدّوها من اكبر فوائد العلم واعمها نفعًا . والنفع من ذلك كبير لا ينكر وقد يوازي عشر النفقات . واذا اكتشف الاطباء واسطة تقلل المرض وتجيد الصحة عدّت من نِعَم الله التي ينطق بشكرها كل لسان . ولكنّ علماء الكيمياء والطبيعة والفسيولوجيا والطب قد اكتشفوا حقائق كثيرة اذا روعيت قلّت نفقات جانب كبير من الناس نحو الربع وجادت صحتهم وزادت رفاهتهم وهذه الحقائق متعلقة بكيمياء الطعام والشراب اللذين هما دعامتا الحياة

ومن المسلّم بهِ ان تسعة اعشار الناس ينفقون نصف دخلهم او اكثر على طعامهم وان اكثر مواد الطعام لا يصلح لتغذية البدن ما لم يُعَد بالاختمار او بالطبخ او بكليهما ليصير مقبول الطعم سهل الهضم . والاختمار والطبخ قد يزيدان فائدة الطعام وقد يذهبان بنصفها سدًى . ومن الغريب انك ترى في العربيّة وغيرها كتبًا لا تعدّ في الصرف والنحو والبيان والحساب ولا ترى كتابًا واحدًا في علم الطبخ وكيفيّة اعداد الطعام على اساليب علميّة تمنع تلفهُ وتزيد نفعهُ